الاسواق الاسلامية

لنقولا زيادة

الاسواق ، بما يعرض فيها من سلع ، وبمن يؤمها من متاجرين ، تصف الدرجة التي وصلت اليها التجارة خاصة والحياة الاقتصادية عامة . فاذا رافق الاتجار لون من الوان الادب ، واحتفال بالمواسم الدينية ، كانت الاسواق صورة للحياة العقلية والاجتماعية كذلك. وكلما تعددت الاسواق ، وازداد ما يعرض فيها وكثر التبادل فيها ، دل ذلك على وجود النشاط في حياة الجماعات . وركود الاسواق على العكس من ذلك دليل على اضطراب شؤون المعاش والاحوال المالية وغيرها في الدولة

واذا عرضنا الامم والشعوب وجدنا ان البدوي منها له اسواق موسمية تقام في اماكن معينة ، مرة في السنة او الفصل او الشهر او الاسبوع . والسنوي او الفصلي منها أعم وأشيع لارتباطه بالانتاج الزراعي والحيواني . اما الجماعات الحضرية فتغلب عليها الاسواق الثابتة ، لان لكل مدينة اسواقها تباع فيها مصنوعاتها وغلاتها وتحمل اليها ما تحتاج اليه مما تنتجه البلاد الاخرى

كان العرب في الجاهلية تغلب على تجارتهم الاسواق الموسمية وكانت تقوم في ملتقى الطرق التجارية الكبرى فيفد اليها الناس من اطراف الجزيرة مثل عكاظ ودومة الجندل . وقد يأتيها قوم من الخارج مثل اسواق عدن وصنعاء

ولم تكن اسواق العرب في الجاهلية تقتصر على التجارة ، بل كان يقصدها طالب الامن يستجير ، ويؤمها طالب الفداء يحمل فداء اسيره فيفكه . وقد عقد الصلح غير مرة بين المتخاصمين في الاسواق . لكن الميزة التي اختص بها كثير من اسواق العرب الحولية الكبيرة ، هي كونها سوقاً أدبية . فقد كان الشعراء يتناشدون فيها شعرهم ، متنافسين متفاخرين وكانت قبائل العرب تحتفل بالشاعر الفائز احتفالاً كبيراً

وقد وصلت الينا اخبار كثيرة عن هذه الاسواق وايامها ، وعما كان يدور فيها من المفاخرة والمناظرة والمنافرة ، وعمن كان يقصدها من الشعراء والمتاجرين ، وهذه الاخبار ثروة

ادبية ، في قراءتها متعة ولذة . وعكاظ اشهر الاسواق التي حفظ لنا التاريخ والادب اخبارها ولا ريب في انها كانت اكبر الاسواق التي وصلت الينا انباؤها . وهي تربى على عشرين فقد كانت مع تجارتها الواسعة ، مجمعاً ادبياً له محكمون تضرب لهم القباب ويتناشد الشعراء بين ايديهم وحكمهم لا يحتمل تجريحاً . بل ثمة من كان يأتي عكاظ ببناته يقصد تزويجهن وفيها كان الرجل يستلحق آخر بنسبه ، او يتبرأ منهُ . ويلي عكاظ في المقام المجنة وذو المجاز. وهذه الاسواق الثلاث كانت تقام في موسم الحج

اما بعد الاسلام ، وبعد الفتوح التي مكنت العرب من اقطار من الارض غنية واسعة فقد كفوا مؤونة الترحال ، ومصروا الامصار وسكنوا المدن ، فصار لهم في الاسواق الثابتة غنى عن الاسواق الموسمية . لكن الذي نود أن نوجه النظر اليه هو ان بعض الاماكن القريبة من منازل البداوة بقيت لها نزعة بدوية ، فكانت تقام في نواحيها الاسواق التي يؤمها أهل الترحال المستمر، يبيعون فيها ويشترون ، شأن سوق المربد في البصرة، وأسواق بزاعة الى الشرق من حلب، وسوق زاوية ابن ادهم في جبلة . والسوقان الاخيران روى خبرها المتأخرون من الرحالين العرب . فالأول ذكره ابن جبير ، والثاني حدثنا عنهُ ابن بطوطة

والمربد سوق البصرة ، انشيء لما مصرت في زمن عمر بن الخطاب . والاصل فيه انهُ متسع للابل تعرض فيه للبيع . واتسعت تجارته في عهد الراشدين فشملت السلاح والتمر ، وصار مركزاً للدباغين . ثم اصبح على عهد الامويين سوقاً عامة ، تتخذ فيها المجالس ، وتتعدد الحلقات يتوسطها الشعراء والرجاز ، ويؤمها الاشراف ، فيتناشدون ويتهاجون ويتشاجرون . وهكذا جمع المربدُ الى التجارة ، الادبَ والسياسة . فقد نزلت فيه عائشة أم المؤمنين بعد مقتل عثمان تطالب بدمه ، وتؤلب الناس على علي . وكان والي البصرة لعلي ينقض قولها ، حتى وقعت بين الفريقين معركة بالحجارة ، تضرر منها كثيرون . وفي المربد تهاجى جرير والاخطل والفرزدق . أما في العصر العباسي فكان المربد مدرسة يقصدها الشعراء كبشار وابي نواس ليأخذوا عن اعرابه الملكة الشعرية ، وكان يؤمه اللغويون ، يأخذون عن أهله ويدوّنون ما يسمعون . لكن هذه السوق كانت فذة في الاسلام . فلسنا نعرف لها شبيهاً . ولا شك ان موقع البصرة، على أول مدر من العراق وآخر حجر من الصحراء، كان له تأثير كبير في طبعها بهذا الطابع الخاص

اما أسواق المدن الثابتة ، فقد كانت تتأثر في شكلها وتنظيمها وتنسيقها ، وموقعها وسلعها واعمالها بالاقليم والمدينة ، والمكان الذي تحتلهُ الاسواق من المدينة كان يتوقف على عوامل كثيرة . فدمشق وحلب ، وهما من المدن القديمة ، بقيت اسواقهما حيث كانت قبلاً . ولما

بنى ابو جعفر المنصور بغداد صيّر الاسواق في طاقات مدينته من كل جانب فلما قدم عليه وفد ملك الروم امر ان يطاف بهم في المدينة ، ثم دعاهم ، وسألهم كيف وجدوها ، فقال رئيسهم « رأيت أمرها كاملاً إلاّ في نخلة واحدة . فان عدوك يخترقها متى يشاء ، وأنت لا تعلم . لأن الاسواق فيها ، وهذه غير ممنوع منها أحد » . فزعموا ان المنصور أمر عندها باخراج الاسواق الى الكرخ . وكانت الدكاكين في أسواق مصر وغرب آسيا تمتد على طول الشارع من الجانبين ، على كل جانب صف منها . وكانت أسواق حماه أيام أن زارها ابن جبير حسنة التنظيم ، بديعة الترتيب والتقسيم . أما في المدن الايرانية فكانت الاسواق الجزء التجاري المنفصل عن المدينة الرسمية وعن القلعة . ولذلك جمعت الدكاكين في مكان واحد

وبنى عضد الدولة أسواقاً (عند مدينة جامع رام هرمز) غاية في الحسن . كانت نظيفة ، مبلطة مبرقة مظللة

والغالب على الاسواق أن تسقف وتظلل . فقد روى ابن جبير ان أسواق مَنْبَج فسيحة ، وسككها متسعة ، ودكاكينها وحوانيتها كأنها الخاناتُ والمخازنُ اتساعاً وكبراً ؛ وأعالي أسواقها مسقفة . وعلى هذا الترتيب أسواق أكثر المدن في شمال سوريا . ونقل عن اسواق حلب انها مسقفة بالخشب . وروى فون سوخم الفرنسي ان عكا كانت في القرن الثالث عشر (قبل وقوعها بأيدي المماليك) ذات اسواق مظللة بالحرير وغيره من ثمين القماش

وكان يراعى في اختيار اسماء الاسواق امور كثيرة . فهناك سوق الثلاثاء في شرقي بغداد . وهذا يدل على ان السوق كانت اصلاً اسبوعية . ومثل ذلك سوق القيروان التي كانت تعقد في يومي الاحد والخميس . وربما كان قوام كثير من هذه الاسواق ، في بدء الأمر ، دكاكين لا تمتلىء وتعمر الاّ في يوم السوق ، ثم تغيرت طبيعتها واحتفظت باسمها . ومنها الاسواق التي كانت تسمى باسم منشئها . فقد سميت (سوق اسد) بالكوفة نسبة الى اسد بن عبد الله القسري ، وسميت سوق وردان بالفسطاط باسم منشئها . وهناك الاسماء التي ترجع الى القوم النازلين فيها ، كسوق البربر في الفسطاط . لكن الغالب على التسمية ان تعرف السوق باسم السلعة التي تغلب عليها او العمل الذي يتم فيها . ومثل ذلك سوق الخشب في الاسكندرية ، وسوق الصرافين باصفهان ، وكان يجلس فيها مائتان منهم ، وسوق العطارين والبزازين في جامع رام هرمز ، وسوق الرقيق في سامراء ، وسوق الاوز في عكاء ، وسوق الوراقين — جميع هذه الاسواق ، اسماؤها تابعة لسلعها ومتاجرها

وكانت الاسواق مراكز للصناعة كما كانت للتجارة ، ومن ثمّ كانت اسواق الجوهريين

والدباغين والصيادلة والغزالين وللمرجان وغير ذلك . وقد بنى عضد الدولة ابن بويه بمدينة كازورن داراً جعلها مركزاً لنسج الكتان ، وكان دخلها في كل يوم عشرة آلاف درهم (أي أقل من اربع مائة جنيه بقليل)

وفي رحلة كل من ابن جبير وابن بطوطة ، وناصر خسرو وغيرهم ، وفيما تركهُ جغرافيو العرب كثير من المعلومات عن الاسواق الاسلامية وأوصافها . فلما وصل ابن جبير الى الاسكندرية استوقف نظره (حسنُ وضع البلد ، واتساع مبانيه) حتى انهُ ما شاهد بلداً أوسع مسالك منهُ ولا أعلى مبنى ، ولا أحفل ، وأسواقه في نهاية من الاحتفال . وتأتي أهليه الخيرات من جميع البلاد ، فيتصرفون في الليل بالبيع والشراء كتصرفهم به في النهار. وكان في الاسكندرية اثنا عشر الف دكان . ويصف ابن بطوطة رحلته من الاسكندرية الى مصر ويذكر مروره بسمنود والمحلة الكبرى ثم يقول (والاسواق متصلة بين الاسكندرية ومصر) وهذه الاخيرة مركز الوارد والصادر . وكانت بغدادُ مشتبكةً أرضُها بالعمارة وأسواقها رائجة التجارة — فيها ما تشتهي الانفس وتلذ الاعين ؛ إذ انها في نهاية الاحتفال ، وقد جمعت أخلاط التجار إلاّ سوق الصاغة فيها فانهُ منفرد بالفرس وقد بلغوا من الاجادة انهم رصعوا الزجاج بالجوهر . وكانت سوق الجواري فيها الحبشيات والروميات والجرجيات والشركسيات . وكان الدلالُ ينادي عن حوله من المشترين ويصف الجواري بما لهنَّ من الاوصاف الحسان وهم يتسابقون الى مشتراهن

ويرى المحدثون من الباحثين ان الاسكندرية وبغداد كانتا تعينان أسعار الحاجيات ، على الاقل فيما يختص بالكماليات

وقد تركت دمشق أثراً جميلاً في نفس ابن جبير نقال عنها (وأسواق هذه البلدة من أحفل أسواق البلاد ، وأحسنها انتظاماً ، وأبدعها وصفاً ، ولاسيما قيسارياتها ، وهي مرتفعاتٌ كأنها الفنادق ، منقفةٌ كلها بأبواب حديد كأنها أبواب القصور ، وكل قيسارية منفردة بصيغتها واعلاقها الجديدة . ولها كذلك سوق تعرف بالسوق الكبيرة ، تجتاز المدينة من باب الجابية الى باب شرقي)

وكان البيع والشراء يتمان بالمقايضة . وتقلب المناداة بأسماء البضائع قبل الاتفاق . كالذي عرفناه عن سوق الجواري ببغداد، والمناداة بسرعين على ما رواه ابن بطوطة وياقوت) وقد روى ان المقايضة كانت اساساً للبيع والشراء في بعض الاحوال كما ان ياقوت يذكر بلدة بالمغرب الاقصى اسمها البصرة عرفت « بمصرة الكتان » لان البيعَ والشراءَ فيها كان اساسهُ قماش الكتان . لكن استعمالَ النقود كان القاعدةَ الشائعةَ والغالبة في الاتجار في العالم الاسلامي .

بل ان التعامل المالي في العالم الاسلامي عرف نظام الصرافين . فلم يكن عن الصراف غنى في سوق البصرة . وكان العمل ان كل من معهُ مال يعطيه للصراف ويأخذ منهُ رقاعاً ثم يشتري ما يلزمهُ ويحول ثمنهُ على الصراف، ولا يعطون شيئاً غير الرقاع ما داموا في المدينة

وتدلنا الامثلة التالية على الاموال الطائلة التي كانت تروج في الاسواق «كان في القرن الثالث الهجري بمدينة همذان خان كبير تباع فيه الامتعة المختارة، قدّر صاحبه دخلهُ منهُ بمليون ومائتي الف من الدراهم (نحو اربعين الفاً من الجنيهات). واشترى تاجر ان في عصر المأمون غلات العراق فأشرفا على ربح عشرة ملايين درهم ثم اتضع السعر فخسرا ستة ملايين درهم .وروى ياقوت انهُ كان في قيسارية البز في حلب في القرن الخامس للهجرة عشرون دكاناً للوكلاء يبيعون فيها كل يوم متاعاً قدره عشرون الف دينار(نحو عشرة آلاف جنيه) وان ذلك مستمر منذ عشرين سنة . وكان المتحصل من مكس القمح بدمشق في اواخر القرن الثامن الهجري يزيد على مليون من الدراهم . وكانت رسوم الذبح في طرابلس الشام في الوقت عينهِ ثمانين درهماً في اليوم الواحد

وروى ابن بطوطة لطيفة عن اسواق سرمين بين حماه وحلب ، جاء فيها : (وبها (أي سرمين) يصنع الصابون . . . ويجلب الى مصر والشام . . . وأهلها صباغون يبغضون العشرة . . . حتى انهم لا يذكرون لفظ العشرة ، وينادي سماسرتهم بالاسواق على السلع فاذا بلغوا الى العشرة قالوا تسعة وواحد . . .)

ونقل المحدثون عن الثعالبي ان أكثر ما كان يباع من الفاكهة في الاسواق البطيخ . ولذلك كانت سوقُ بيع الفاكهة تسمى دار البطيخ . وروي ان شاعراً مدح وزيراً بقصيدة أكثر فيها من ذكر الفاكهة فسماها عامة ببغداد « دار البطيخ » تشبيهاً لها بمكان بيع الفواكه

زار بناحيا اليهودي الاوربي العراق في عصره الزاهي وروى ان التاجر اذا وصل الى بغداد أو غيرها ، وضع أمتعتهُ في بيتٍ رجل من الناس ورحل ، فيحملون هذه الامتعة الى جميع الاسواق للبيع . فاذا دفع فيها ثمنها المقرر كان بها ، وإلاّ حملوها الى جميع السماسرة فان رأوا انها أقل قيمة باعوها بهذا الثمن القليل وكل هذا مع غاية الامانة والذمة

ولعلّ من أغرب ما روي عن طريقة الاتجار هو انه كان وراء سجلماسة من أرض المغرب وأقاصي خراسان، تما يلي الترك قوم متبايعون من غير مشاهدة ولا مخاطبة »فيتركون عند كل متاع ثمنه من أصناف الذهب . فاذا جاء صاحب المتاع اختار الذهب وترك المتاع اذا وافقهُ والاّ أخذ سلعته وترك الذهب .

القدس الشريف